قصة قصيرة

بهلول ينصح السلطان

بقلم: عادل فرج عبدالعال
مصر

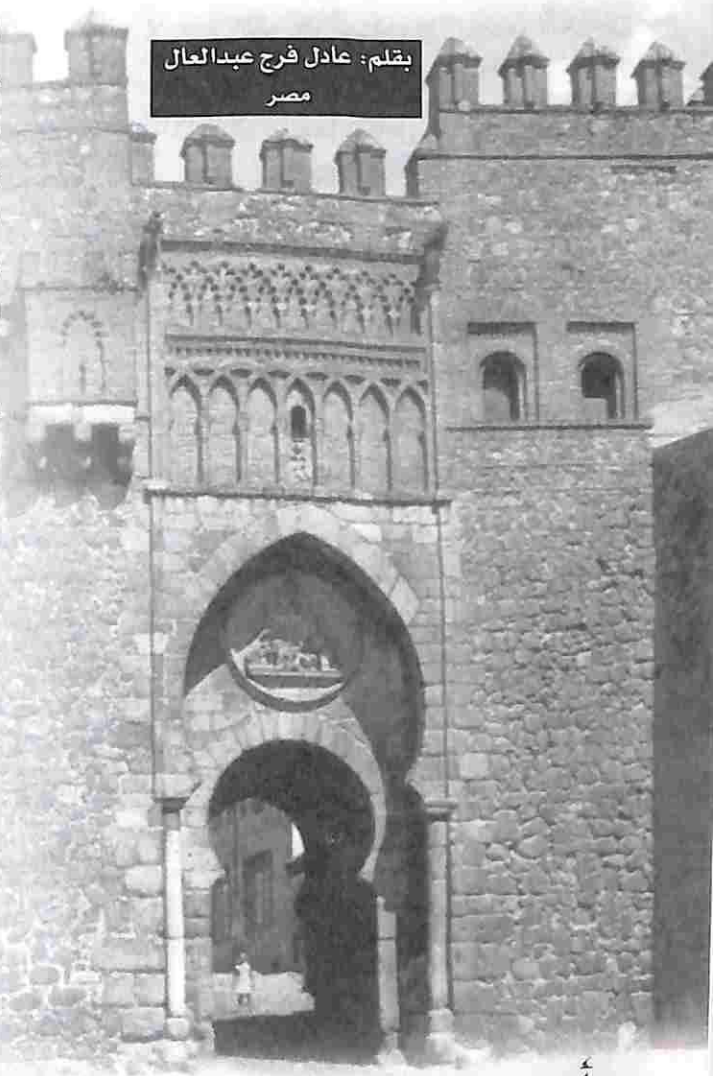

أحكم الليل قبضته على المدينة.. ترصعت المدينة المغرمة بالسهر بالأضواء.. تزينت بالأنوار.. الناس ساهرون في البيوت والمقاهي والحانات.. يجعلهم التلهف على معرفة ما جد من أخبار.. والإحاطة بما جرى من الأحداث.. الأضواء منبعثة من القلعة الجاثمة فوق الهضب.. دلت على أن السلطان ورجاله ساهرون.. حراس الأبواب يتسقطون أنباء الداخلين والخارجين إذا سنحت الفرصة..

في الشارع الصاعد إلى القلعة.. كان مقهى البهلول.. يستند على السور الشاهق للقلعة بأحجاره العملاقة.. لم يكن البهلول يمتلك المقهى، لكن وجوده المستمر أكسب المقهى اسمه وشهرته، وجذب الكثيرين إليه من «الحرافيش» ورجال السلطان العاملين في القلعة.. وكان ما يقدمه المقهى من مشروبات وحلوى يجتذب الكثيرين ليتذوقوا القرفة المطعمة، والحلبة الممزوجة بالحليب، والقهوة المحوّجة، والشاي، والدخان، والمكيفات المسموح بها.. يستوي في ذلك «الحرافيش» ورجال السلطان..

جذب «عواد الحمقي » أنفاسا متلاحقة من نرجيلته، فازدادت حمرة الجمرات.. وخرجت كلماته مختلطة بالدخان :

-إذا رغب الملك عن العدل.. رغبت الرعية عن الطاعة.

اعترضه «المعلم عباس أبو حجر» وقال بحدة بعد أن جرع ما تبقى في كوز الحلبة:

- إذا لم يقبل الرأي منك فالسكوت أولى بك..

فتح البهلول عينه اليمنى، وقال بإخلاص:

- «الساكت عن الحق شيطان أخرس»..

أطل «المشاعيلي ظالم» بوجهه القاسي الملامح من النافذة المطلة على الطريق وقال بصوته المميز وبلهجة الحكام :

- السلطان يطلبك يا بهلول..

سرت في جوى المقهى موجات من القلق والتوتر والتنقيب..

تمطى البهلول وفتح عينه اليسرى وقال بتلكؤ محسوب:

- دعني أنته من زبدية المشبك، فأنا لا أتعجل لقاء السلطان..

سرت همهمة تشي بالارتياح بين الجالسين..

في الطريق إلى القلعة.. لم يتبادل بهلول الحديث مع المشاعيلي ظالم كعادته دائما وظلت عيناه تجوسان بين نجوم السماء.. سأله مقدم الحرس وهو يدخل باهتمام :

- ما هي آخر الأخبار يا بهلول..

نظر بهلول إلى السماء، وقال بصوت حالم : - أبدع من

رصع رداء السماء الأسود بهذه الماسات البراقة..

غمغم مقدم الحرس بصوت حانق لم يسمعه سواه:

- أحمق ومخبول.. ويزيد عليه في الحماقة والخبل أن السلطان يستشيره..

نهض السلطان.. احتضن البهلول بشوق.. أجلسه معه على أريكته.. بإشارة من يده.. أخلي القاعة.. لم يبق إلا خادمه الأصم.. الأبكم.. تسلل المخدر الذي يحمله دخان نرجيلة السلطان الأزرق إلى كل من في القاعة، حتى البلبل المحبوس في قفص ذهبي.. كف عن التغريد الذي كان يتسلى به من آن لآخر.. لم يبق إلا صوت قرقرة النرجيلة ينغمه السلطان على هواه..

انتزع صوتُ السلطان البهلولَ من التلصص على النجوم من خلال فتحات المشربية.. قال السلطان:

- ما رأيك فيما حدث اليوم ؟.

رد البهلول بسرعة حتى لا تفوته اللحظة الأخيرة في حياة شهاب تجرأ على الاقتراب من الأرض:

- الجوع كافر.. والكافر فاجر..

نهش السلطان تفاحة حمراء، وقال بصوت ينبح بالعجب:

- أي جوع..؟.. القاضي ابن النحاس.. أكد لي أن العوام يشترون ذهبا وبفضتهم يشترون حلاوة، ونصحني بفرض ضرائب جديدة..

قهقه البهلول، وقال :

- أوشك القاضي أن يدفع حياته ثمنا لهذه النصيحة، وكاد أن يموت من الصفع والركل.. لولا أن خلصه المشاعيلي من أيديهم.. غشك يا مولاي.. القحط ذهب بالذهب وفض الفضة..

تململ البهلول في مجلسه، ومسح دمعة فرت من عينه وجرت على خده، وتابع كلامه بصوت تخنقه المرارة..

- الفقراء يشتهون الخبز.. ويحلمون برغيف، وتغزل شاعر منهم بقصيدة طويلة في الرغيف الذي هجرهم وأطال الغياب..

قام البهلول واتجه نحو الباب.. لم يستأذن السلطان في الانصراف كعادته.. نفث السلطان الدخان وأخذ يراقب الصور والأشكال التي يتحول إليها.. وقبل أن يخرج البهلول سأله:

- هل يدعو العوام عليّ؟..

قال البهلول بسؤال دون أن يلتفت إليه :

- ماذا تظن أنت يا مولاي ؟..

انتبه مقدم الحرس لخروج بهلول.. سأله وقد رسم ابتسامة متملقة على وجهه:

- ما الجديد يا سيدي البهلول ؟..

رد البهلول وعيناه تتابعان النجوم:

- صارت العيون من زجاج، والآذان من صوان، والقلوب من فولاذ..

بعد أن ابتعد البهلول.. همس مقدم الحرس في أذن المشاعيلي ظالم :

مضى البهلول يرقى صاعدا جبل المقطم قاصدا الغار الذي يتعبد فيه شيخه.. بلغه أن أحد النجوم تغمز له، فتشجع على البوح بما يثقل قلبه.. هذا الجبل شهد الكثير من الأحداث، ولكنه محزن، وأقل القليل يسر القلب..

دلف إلى الغار.. الشيخ جالس على حصير.. يحرك حبات مسبحته وهو غارق في بحر الذكر الخفي.. جلس يستمع إلى صوت حبات المسبحة.. إيقاع زمن خاص بالشيخ وبغاره.. أخرجه صوت الشيخ من الاستماع إلى صوت النجوم وهي تسافر في بحر الكون، وقال :

- في عينيك سؤال حائر ومحير ؟..

قال متعلقا بطوق النجاة الذي ألقي له في بحر الحيرة المتلاطم الأمواج :

- هل تدعو على الظالم ؟..

تكدر صفاء عيني الشيخ لبرهة، ثم قال وكان الهدوء يكشف كلامه :

- لا.. لأن ظلمه وجوره لم يصدر عنه وإنما صدر عن رعيته المظلومين بحسب الأعمال.. وإنما هي أعمال الرعية ترد عليهم، وقد قيل : «الحاكم الجائر عدل الله في أرضه ينتقم به من خلقه، ثم يصير إلى الله. فإن شاء عفا وإن شاء انتقم منه.. وربك فعال لما يريد، وهو الغفور الودود»..

سكت الشيخ وعاد إلى الغوص في بحر الذكر الخفي.. وعاد البهلول إلى التطلع إلى النجوم.. ■